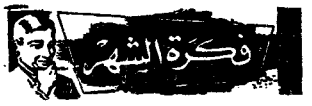

متى يكتب تأريخنا القومي ؟

لايمكن للانسان ان يقطع حياته الأولى ويبدأ عيشه من جديد؛ فانالفرد ابن ماضيه كما هو ابن غده؛ وتاريخنا العربي من التواريخ التي تشرف وارثها ، لذا انقطع الكثير من جهابذة الباحثين الغربيين لدراسته والوقوف على خفاياه . ومن المؤلم حقاً أننا حتى الوقت الحاضر لم نحظ بتأريخ قومي يعرض لأحداثنا بشكل علمي صرف مهتماً بالمتطلب الواقعي للحياة العربية .

ان إفراد كتب لجمع الاحداث أتي كنتيجة لعلم الحديث والاهتمام بالتجريح والتعديل ؛ لذا نرى مولد الكتابة في التأريخ عندنا ضعيفاً عرضياً يحتل علم التراجم (Biography) المكان الأول فيه . والذي يقرأ الكتب التأريخية المتقدمة التأليف مثل كتاب « الرسل والملوك » للطبري يرى ان المؤلف يبدأ بتأريخ الخليفة على اساس تصوري ثم ينتهي الى الجاهلية ومنها الى العصر الذي هو فيه . ولعل هذا التدرج نشأ بسبب علم التجريح والتعديل الذي يؤكد على ان نتتبع سلسلة رواة الحديث ونجرح كل شخص من النقلة . اما فيما يتعلق بالحروب الداخلية في الاسلام، فنرى كل أنسان يتجه صوب هواه يصور الحوادث كما يريدها انتكون، فاذا كان من شيعة علي طمس حقوق اعدائهم ومنافسيهم والعكس صحيح ، وبذا انقلب التأريخ ميداناً تسوده الأغراض الشخصية والتعصب المذهبي البغيض . ثم امن الشعب العربي في هذه الاحداث اسم لخليفة او المتنفذ.اما الذين بنوا الأهرام — كما يقول توينبي — فقد نسيت اسماؤهم .

وجاء العصر الحديث فأذا بالمنطق يتوارى وتبزغ شمس التجربة، فتعم مجالات العلوم والفنون ، وتدخل نظرية النشوء والارتقاء من الكوى ، والشبابيك ، والأبواب ! حتى الأدب لم يسلم منها، فقداعتبروا المسرحية الشعرية تطوراً للديترامب (Dithyramb) والملاحم .

وهنا لابد أن نتساءل : ماذا أفاد التأريخ العربي من هذا التطور والانقلاب الفكري ؟ وأعود فأجيب ان جماعة من رجال الغرب درسوا تراثنا وكتبوا مدفوعين بعوامل شتى منها اخلاصهم لدولهم وحبهم للبحث ولكنهم لم يبرأوا من النفاق يوزعونه بالقسطاس بين هذا الجانب وذاك ، فلعبوا بالنار واضروا بقدر ما أفادوا ، ثم لاننسى المثل الايطالي القائل « انت ادرى من جارك بآلامك » .

وبعد ان تيسر لنا الاطلاع على منابع ثقافة الغرب في مظانها ، كان لزاماً علينا ان نوسع لتأريخنا مكاناً يحتله بين تواريخ أمم العالم . ولكن ذلك لم يحدث وانما عدنا الى المساوئ ونسينا النوابغ ، فلم يدرس ابن خلدون ولامقدمته دراسة نقدية عصرية ، وصار جل همنا العودة الى الماضي والتوكيد على روح التعصب، الذميم متناسين ان علم التأريخ قد نضج في الغرب ووجد هناك ما يسمى بالتأريخ المقارن ؛ لذا أرى لزاماً علينا — ونحن نجتاز هذه المرحلة الدقيقة من حياتنا أن نعيد النظر في تأريخنا القومي ، لأن هذه النظرة الجديدة نصر نحققه في مجال القومية العربية وحلقة في سلسلة المعارك الداخلية كما يراها الدكتور سهيل ادريس .

وهناك أمور أشترطها في تأريخنا الجديد هي : أن يكون متوخياً الاسلوب العلمي قبل كل شيء ، فلا مجال فيه لعاطفة أو رغبة شخصية أو تعصب ، وأن يراعي حاجة المجتمع العربي المتجدد فلا يفرض عليهأموراً لا يستسيغها اويقيده باعتبارات تخالف الواقع ، ولابد من التوكيد فيه على شخصية الشعب العربي ، فان كتب التأريخ القديمة والحديثة اغفلت هذه الناحية كأنما هي تدري رأي كارليل « الجيش بقائده » . فالمعتصم هو الذي دك عمورية لا جنوده ، ثم لابد أن تدرس حقائق التأريخ العربي على انها وحدة متكاملة كما يرى كارل بيكر في كتابه « المدينة الفاضلة في القرن الثامن عشر» . فليست هناك حادثة غير متأثرة بعارتها ومؤثرة بلاحقتها . أما كتبة هذا التأريخ فيجب ان يكونوا ممن اجتمعت لديهم الثقة العلمية الى جانب الدقة في النقل وإيراد النصوص ، ثم لابد من ايضاح أثر الثورة الفرنسية ١٧٨٩ م في توجيه اذهان شباب البلاد العربية . والربط بين هذاالأثر وبين قيام الجمعيات العربية التي طالبت بالحكم الذاتي ثم موقف العرب في الحربين الكونيتين السالفتين . هذا ولا يجوز أن نفصل التأريخ عن غيره من الأمور كالسياسة والاجتماع أو علم النفس الى حد معقول .

اما اسلوب الكتاب أو الكتب التي تشمل الفترات المتتابعة من تأريخنا فيجب أن يكون سهلا يجمع بين الدقة في التعبير والإيفاء بالغرض والجرأة في بحث المعاضل .

وبعد ، فهذه دعوة مخلصة عرضتها لما توخيته من النفع ، لأن التأريخ القومي كاللغة الفصحى لم يستطع اجتذاب ناشئتنا ومثقفينا ، لذا نراهم يعجبون ببر وكلمن دي خويه او نولدكه دون ان يعرفوا حافز هؤلاء للكتابة ومبلغ صدقهم في التعبير . وأذكر مرة انني قرأت كتاباً لإميل درمنغم عن محمديقول فيه « ان محمداً كان يميل الى عثمان دون علي لأن الأول من ذوي اليسار والآخر معسر » وشبابنا معذورون اذا جنحوا لناحية المستشرقين، لأن كتاب التأريخ القومي قدامى ومحدثين يكتبون بعيون عصبها الانحياز المذهبي او الشخصي بأسلوب يعافه الفرد العصري ذو المشاغل الكثيرة .

متعب مناف
ليسانس شرف — قسم الآداب
بصره(العراق)